مقالة مصورة : التعجب

من كتاب :

سوانح

تأليف
د. محمد بن إبراهيم الحمد

دار الحضارة
الطبعة الأولى

ⓒ شركة دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحمد، محمد بن إبراهيم

سوانح/ محمد بن إبراهيم الحمد- ط١- الرياض ١٤٤٥هـ

٠٠ ص ؛ ٠٠×٠٠سم

ردمك: ٣-٦٨-٨٤٠٤-٦٠٣-٩٧٨

رقم الإيداع ١٤٤٥/٧٢٥٧

رقم الإيداع: ١٤٤٥/٧٢٥٧

ردمك: ٣-٦٨-٨٤٠٤-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م

المملكة العربية السعودية - الرياض

daralhadarah@hotmail.com

الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 011 - 2702719

0551523173 @daralhadarah

زوروا متجر الحضارة

daralhadarah.net

١٩- التَّعَجّب

التَّعَجّب مصدر الفعل تعجَّب يتعجَّب تَعَجُّباً.

والتعجب: انفعال يحدث في النفس؛ جَرَّاء الشعورِ بأمر يخفى سببه، أو رؤيةٍ أو سماعٍ لشيء خارج عن نظائره؛ فينتج عنه إظهار لذلك الانفعال، وهو ما يعرف بالعجب، أو التعجب.

وقد يكون باعث التعجب خوفاً، أو فرحاً، أو دهشةً، أو استغراباً، أو طرباً، أو اهتزازاً لمكرمة، أو استبعاداً لحدوث أمرٍ ما، أو نحو ذلك.

وللتعجب في اللغة العربية أسلوبان: أحدهما: سماعي، وهو ما لا ضابط له؛ فلا تَحْكُمه قاعدة معينة، ولا وزن يقاس عليه.

بل يُوكَلُ ذلك إلى مراد المتكلم، وما أوتي من بلاغة، وفصاحة، ويُفهم من قرائن تدل عليه، كقول: سبحان الله، أو ما شاء الله، أو تبارك الله، أو يا له من كذا، أو عجب، أو عجيب، أو لله أنت، أو لله أبوك، أو لله درك.

بل قد يكون من خلال إشارة، أو إطراقة، أو وقوفٍ، أو تحريك رأس تصعيداً أو تصويباً، إلى غير ذلك مما يُظْهِرُ التعجب.

والأسلوب الآخر وهو القياسي، وله صيغتان معروفتان عند النحاة إحداهما: ما أفْعَلَه، ومن أمثلتها: ما أجمله، وما أروعه، ونحو ذلك.

والأخرى: أفْعِلْ بِهِ، ومن أمثلتها: أكرم بفلان، وأنعم به، وما جرى مجرى ذلك.

ولهاتين الصيغتين شروط، وأحكام تُعرف تفصيلاً في مواضعها من كتب النحو، والصرف، والبلاغة.

وليس هذا موضع الكلام حولها، وإنما مرماه ههنا دائر حول إظهارِ التعجب، وعدمِ إظهاره؛ ذلك أن من جميل الأدب، ومن علامات الذوق، وأمارات حسن الفهم ـ أن يُظْهِر الإنسان التعجب إذا رأى ما يستحسن، ويُتَعَجَّب منه حقًّا، سواء كان ذلك شعراً، أو نثراً، أو فائدة علمية، أو موقف مروءة وشهامة.

أو كان بخلاف ذلك مما يثير الاستغراب، أو الاستهجان، أو الفرح، أو الخوف؛ فمن المستحسن في مثل تلك الأحوال أن يظهر الإنسان التعجب؛ فَيُعَبِّر عنه بما يلائم المقام.

وإظهارُ التعجب دليلُ فهمٍ وذوقٍ وكرمٍ ولطفٍ، وعلامة على توقُّد الذِّهن، وشهامة الخاطر، وسلامة الفطرة.

وهو باعثٌ على المكارم، ومُغْرٍ بالترقي في مدارج الكمالاتِ، وناشرٌ للبهجة والسرور في المجالس.

ولقد كان من هدي نبينا محمد ﷺ التعجبُ، وإظهارُ ذلك عند حدوث مقتضيه، ومن ذلك أنه كان يعجبه التَّيَمُّنُ في تنعُّلِه، وترجُّلِه، وشأنه كله.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يخفي إعجابه ببعض الناس، أو بعض المواقف، بل يظهر ذلك، ويسمعه من يستحقه، كقوله لأبي موسى الأشعري ـرضي الله عنه ـ لما سمع تلاوته: «لقد أُوتِيتَ مزماراً من مزامير آل داود».

وقوله لابن عمر ـرضي الله عنهما ـ وقد أعجبه سمته، وأراد مزيد كمالٍ له: «نعم الرجل عبدالله لو كان يقوم من الليل».

والأمثلة من هذا القبيل في السيرة النبوية كثيرة جداً.

وكتب السير، والأدب، والتراجم حافلة بذلك، ولا زال كرام الناس، وأكابرهم يتعجبون مما يتعجب منه؛ فذلك من جملة المناقب، ودلائل الخيرية.

ومن الأمثلة على ذلك ما كان من شأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع زهير بن أبي سلمى؛ فقد كان ﷺ يعجب بزهير، ويفضِّله على غيره، وكان يتمثل بقوله:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمين أو نفارٌ أو جلاء

يريد ثلاث خصال؛ فمنها نفار: أي تنافرٌ إلى رجل يتبيَّن حجج الخصوم، ويحكم بينهم، ومنها يمين، ومنها جلاء: وهو أن ينكشف الأمر، ويتجلى، فَتُعْلَمَ حقيقته، فَيُقْضَى به لصاحبه دون خصام ولا يمين.

فكان عمر ﷺ يتعجب من معرفته بمقاطع الحقوق -كما يقول النويري-.

وقال ابن هشام ﷺ: «لما سمع عمر ﷺ قول زهير:

فإن الحق مقطعه ثلاثٌ يمين أو نفارٌ أو جلاء

قال: لو أدركته لولَّيته القضاء؛ لمعرفته ما تثبت به الحقوق.

قال ابن رشيق القيرواني: «وسمي زهير قاضيَ الشعراء بهذا البيت».

ومن ذلك -أيضاً- أن عَمْرَو بن سالم المالقي أنشد في مجلس أبي محمد عبدالوهاب أبياتاً لبعض الأندلسيين، ومنها:

ورأوا حصى الياقوتِ دون صدورهم فتقلدوا شُهْبَ النجوم عقودا

فصار أبو محمد في حال من الإعجاب حتى تصبب عرقاً، وقال: «إن مما يقهرني، ولا أملك نفسي عنده: الشعرَ المطبوع».

وروى حماد بن إسحاق أن أباه قال له: كان العباس بن الأحنف إذا سمع شيئاً استحسنه أطرفني به، وأفعل معه مثل ذلك؛ فجاءني يوماً ووقف بين البابين، وأنشد أبيات عبدالله بن الدمينة في داليته المشهورة:

ألا يا صَبا نجدٍ متى هجت من نجدِ فقد زادني مسراك وجداً على وَجْدِ

ثم ترنح ساعة، وقال: «أَنْطَحُ العمود من حسن هذا البيت؟».

فقلت: «لا، ارفق بنفسك».

وكثيراً ما يصل الإعجاب بحسن المنطق إلى أن يكون سبباً في إنجاح المهمة، وإطْلابِ الطِّلِبَةِ، وتحقيق المراد.

ومما يذكر من ذلك ما جاء في أخبار ابن شرف من أن أحد عمال المعتصم ناقشه في قرية له؛ فَوَرد ابنُ شرف على المعتصم شاكياً هذا العامل، وأنشد بين يديه قصيدة في الغرض، ولما بلغ قوله:

لم يبقَ للجَوْرِ في أيامهم أثرٌ إلا الذي في عيون الغيد من حَوَرِ

قال المعتصم: كم في القرية التي تحرث فيها من بيت؟ قال: فيها خمسون بيتاً؛ فقال له المعتصم: أسوغك جميعها لهذا البيت الواحد، ثم وقَّع له بها، وعزل عنها كلَّ والٍ.

ومن هذا القبيل ما جاء في مناقب وزير الأندلس المشهور محمد بن الخطيب السلماني المعروف بلسان الدين ابن الخطيب؛ إذ قال عند سفارته عن سلطان غرناطة محمد بن أبي الحجاج إلى سلطان المغرب أبي عنان فارس المريني أبياته المشهورة التي ارتجلها عند الدخول عليه يستنصره، ويستغيث به على مقاومة طاغية قشتالة، والتي يقول فيها ـ وهو قائم قبل أن يُسلِّم ـ:

خليفةَ اللهِ ساعدَ القدرُ عُلاك ما لاح في الدُّجى قمر

ليس لنا ملجأٌ نؤمِّله سواك أنت الثِّمال والوَزَرُ

ودافعت عنكَ كفُّ قُدْرَتِه ما ليس يَسْطيع دَفْعَهُ بشرُ

وجهُك في النائبات بَدْرُ لَنا وفي المَحْل كَفُّكَ المطر
والناس طُرًّا بأرض أندلس لولاك ما وطَّنوا ولا عمروا
وقد أهمتهم نفوسُهُمُ فوجهوني إليك وانتظروا
ومن به مذْ وصَلْتَ حَبْلَهُمُ ما جحدوا نعمةً وما كَفَروا
وجملةُ الأمرِ أنه وَطَنٌ في غير علياك ما له وطرُ

فاهتز السلطان أبو عنان لهذه الأبيات، وبلغت منه كلَّ مبلغ، وقال لابن الخطيب: ما ترجع إليهم إلا بجميع مطالبهم، وأَذِن له في الجلوس، فسلم عليه، ثم أثقل كاهلهم بالإحسان، وزوَّدهم بكل ما طلبوه.

قال القاضي أبو القاسم الشريف -وكان من جملة الوفد-: «لم نسمع بسفير قضى سفارته قبل أن يسلم على السلطان إلا هذا».

فهذه لمع يسيرة من أخبار التعجب مما يتعجب منه، والأمثلة عليه لا تكاد تحصى كثرة؛ مما يدل على أهمية ذلك.

وأما ترك التعجب من العجب فآفة مذمومة، وخصلة قبيحة تدخل في عموم المصائب التي يبتلى بها الناس.

وذلك كصنيع بعض الناس ممن تساق لهم الأخبار السارة، ويسمعون من نفائس العلم وغرائب الأخبار، وروائع الأشعار، ومستجادات الأجواد؛ فلا تراهم يتعجبون، ولا يطربون، ولا يظهرون أي تأثر لما يسمعون أو يشاهدون؛ فكأنهم خشب مسندة؛ لا تحس لهم وجبة ولا تسمع لهم ركزاً من جفاء طباعهم، وجفاف مشاعرهم؛ فكأنهم:

نفروا عنها لواذاً وإذا جفَّ طبعُ المرء لم تُغْنِ النُّذُرْ

وهذا ما جعل علي بن الغُدَيِّر الغنوي يرى ذلك من الهلاك، حيث قال ـوما أجمل ما قالـ:

وهُلْكُ الفتى ألا يَراحَ إلى الندى وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

وهو ما حدا ببكر بن عبدالله المزني أن يقول: «كنا نتعجب من دهرٍ لا يَتَعَجَّبُ أهله من العجب؛ فقد صرنا في دهر لا يستحسن أهله الحسن، ومن لا يستحسن الحسن لا يستقبح القبيح».

وذكر ابن قتيبة بسنده عن أبي الزناد عن أبيه قال: «لا يزال في الناس بقية ما تُعُجِّبَ من العجب».

يعني أن الناس لا يزالون بخير ما تعجبوا إذا رأوا أو سمعوا ما يُتعجب منه؛ فإذا رأوا أو سمعوا ما يتعجب منه، ولم يتعجبوا هلكوا.

وقال بعضهم: «العجب ممن لا يتعجب من العجب».

وجاء في أخبار أبي القاسم الزجاجي ما نصه: «أخبرنا ابن دريد قال حدثنا السجستاني عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء بأن العلاء قال: قيل لرجل من بني بكر بن وائل قد كَبِر حتى ذهب منه لذة المأكل والمشرب والنكاح: أتحب أن تموت؟

قال: لا، قيل فما بقي من لذائذك في الدنيا؟ قال: أسمع العجائب، وأنشد يقول:

وهلك الفتى ألا يراح إلى الندا وألا يرى شيئاً عجيباً فيعجبا

ومعنى يراح: يرتاح، ومعنى الكلام: وأن لا يعجب إذا رأى العجب».

والحاصل أن ترك التعجب من العجب بلادةٌ في الحس، وبرودة في الطبع، وكثافة في النفس.

ومن كان كذلك فليعالج نفسه ما استطاع حتى لا يكون كَلاًّ على غيره، وألا يصبح ثقيلاً مستثقلاً في المجالس.

على أنه يجمل بذي الطبع أن يحسن الظن ببعض الناس؛ إذ قد يكون طروباً كريماً أريحياً لكنه لم يعتد على أن يعبر عما في نفسه.

وكما أن ترك التعجب من العجب داخل في قبيل الذم ـ فكذلك التعجب مما لا يتعجب منه، كصنيع بعض الناس مما يظهر العجب والدهشة من أمور لا تستحق التعجب؛ فذلك دليل جهل، وربما كان أمارة غباوة وحمق.